

# الأدب العصري

في الجنوب الغربي شبه جزيرة العرب

للدكتور ر. ب. سارجنت

بقية المنشور في العدد الماضي

—>>><<<—

## مضمومت :

لقد تأثرت الحياة السياسية والثقافية لحضرموت ، في خلال عدة قرون على أقل تقدير ، تأثراً عميقاً بما طبعها به عدة أسرات شهيرة من السادة نذكر من بينها الأسماء القليلة الآتية : السقاف ، وعيدروس ، وبا فقيه ، وبا علوى . وفي القرن الحادى عشر الهجرى أخرجت أسرة السقاف التى كان مقرها في ذلك العهد غالباً في تريم وابلا من الأدب الصوفى ، وطبعاً أخرجت الأسرات الأخرى كذلك مجموعة غير صغيرة من المؤلفات الصوفية . وقد طبع من مؤلفات السقافين عدد ما في خلال القرن الماضى . ولم يقتصر نفوذ السقافين على كليتهم أو مدرستهم التى كانت في تريم بل كانت لهم كذلك صلة بضمخ عينات المشهور ، الذى تظهر صورته على طوابع البريد الحضرمية ، وكان نفوذهم وعلاقتهم تمتد في ذلك الحين — كما تمتد اليوم — إلى أفريقية الشرقية وإلى الهند ولا سيما أحمد آباد ؛ بل ربما كانت لهم علاقات بالجاليات العربية في جزر الهند الشرقية . ومن العلوم لنا أن الأسرة كانت مزدهرة منذ عهد يرجع على أقل تقدير إلى القرن التاسع ، ومن عجيب ما يروى أنه كان هناك شخص يسمى حسين بن أبى بكر السقاف أنكر على تدخين التبغ الذى كان يباع في جزيرة العرب في سنة ١٠١٢ هجرية ، وقد نجح في الحصول على حظر يمه العلنى في الأسواق واشتهر السقافون بأنهم صوفيون غيورون ، وارتحلوا في بقاع الأرض برسالتهم الصوفية ، وتقبلوا المبادئ الصوفية من أعضاء الجمعيات الصوفية الأخرى .

ومن ثم لم يكن غريباً أن يكون اليوم للحضرميين حى يغطون به في القاهرة ، بناحية الجمالية ، على مقربة من مسجد

سيدنا الحسين ، وقد نشر عدد من الكتب الحضرمية أحدها تأليف كاتب سقافى . ويحتوى هذا الكتيب على ست قصائد في مدح الإمام يحيى ، نظمت في سنة ١٩١٢ حينم كانت بلاد اليمن تحت الحكم التركى ، ونشرت في سنة ١٩٣٦ ، وبه أيضاً ردان شعريان من الإمام نفسه ، إذ أن الإمام شاعر معترف بشاعريته . وقد قامت هذه الأسرة المجددة ، في خلال السنتين أو الثلاث الماضية بشر مجلة الاعتصام ، وهى صحيفة شهرية تصدر في مدينة سيون وتعالج الشؤون الدينية والثقافية والأدبية ؛ ومن حسن حظى أننى أمتلك نسخة من هذه المجلة ، وهى العدد الثامن الصادر في صفر سنة ١٣٦٢ هـ ، وهى السنة الأولى في حياة الصحيفة . وبما يذكر عن هذه المجلة أنها مكتوبة بخط اليد إذ يظهر أنه ليس في ذلك الجزء من الوادى مطبعة ، ولا بد أن تكون هذه الصحيفة هى المجلة الوحيدة التى تصدر في البلاد العربية على هذا الشكل .

وصدر في القاهرة كذلك منذ بضع سنين كتاب آخر هام عن حضرموت اسمه « تاريخ حضرموت الديامى » ، وهو يشتمل على قدر كبير من المعلومات القيمة ، ليس فيما يتعلق بالشعراء العصريين ، والأدب العصرى ، والتاريخ الحديث فقط ، بل كذلك فيما يتعلق بالعلوم التى نهضت في الغرب كعلم طبقات الأرض وعلم وصف البلدان ، مما له فائدة جلية على الرغم مما قام به الطيران في السنوات الأخيرة من رحلات الكشف والاستطلاع وحضرموت تواجه الشرق كما تواجه الغرب ، ولقد كانت العلاقات بين جنوبى جزيرة العرب والهند قائمة على أساس وطيد قبل الإسلام بزمن طويل . ويقوم الياقيون اليوم بالخدمة المتوارثة في الحرس السلطانى الخاص لنظام حيدر آباد ، كما كان الياقيون والمهريون يخدمون في الحرس الخاص في أحمد آباد في عهد مضى عليه أكثر من أربعة قرون . ولدينا من الرجحان ما يقرب من اليقين إذ نغزو سبب طبع كتب مثل كتاب فتوح اليمن ، في ممباى وغيرها من البلاد الهندية إلى أنه كان في الهند جاليات حضرمية ؛ كذلك طبعت كتب أخرى تختص بشئون جنوبى جزيرة العرب ، في المدينتين الهنديتين الكبيرتين ، كدكتا وكانبور ، غير أنه طبع في بغداد ، في عهد أحدث من هذا ،

الحزبية ، فيستنتج من الجرائد المختلفة آراء الأحزاب المختلفة عن شأن من الشؤون ، ثم يستمد على مصادر أخرى أقل تشيماً ليستقي منها التأويل الحقيقي للحوادث . على أن المؤرخ الأدب أسعد حظاً من زميله المؤرخ العام ، إذ أن الجرائد هي إلى حد كبير مرآة تنعكس عليها الحركات الأدبية للعصر الذي تصدر فيه ، بل إنها في بلاد مثل بلاد الجنوب الغربى للجزيرة العربية تكاد تكون الوسيلة الوحيدة لنشر الآداب . وقد شاهدنا جميعاً الدور الهام الذى قامت به الجرائد في نهضة الأدب العربى في مصر وسورية ، فمن المهم إذن أن تدبر أثر الجرائد في المجهودات الأدبية في ذلك الركن من شبه الجزيرة العربية .

وفى منتصف القرن التاسع عشر نشر عالم هولندى اسمه فان دن بيرغ ثبثا بالجرائد العربية التى كانت متداولة بين الجاليات العربية في الهند الشرقية ، ولنا أن نفترض أن كل تلك الجرائد كانت متداولة في المدن التى كان يمكن الوصول إليها في الجنوب الغربى للجزيرة العربية ، وكانت هناك جريدة « الجوائب » التى أسست في إستنبول سنة ١٨٦٠ وكانت تطبع فيها ، وقد عطل الباب العالى هذه الجريدة ، ولكنها عادت للصدور مرة أخرى سنة ١٨٨٥ باسم جريدة « القاهرة » . كذلك كانت جريدتنا « الاعتدال » و « الإنسان » تصدران في إستنبول وتتداولان في الهند الشرقية . ومما كان منتشرأ في الهند الشرقية أيضاً الجرائد البيروتية الآتية : « الجنة » و « لسان الحال » و « ثمرات الفنون » ؛ ومن القاهرة جريدة « الوطن » ؛ ومن الاسكندرية جريدتنا « الأهرام » و « روضة الاسكندرية » ؛ ولعل أهم ما كان متداولاً من الجرائد هناك ، من الوجهة السياسية ، هو صحيفة « البروة الوثقى » وهى مجلة دعاة الوطنية من العرب وكانت تصدر في باريس .

وليس من اليسور الحصول على معلومات فيما يتعلق بإنشاء المطابع وتأسيس دور الطباعة في الجنوب الغربى للجزيرة العربية . ذلك إلى أنه يظهر أن معظم المطبوعات الأولى التى أخرجتها تلك المطابع كان ذا صبغة وقتية فاخنى غير مخلف له أثرأ يهتدى به على نوعه أو قدره . وما كتب له البقاء من الرسائل أو الجرائد التى طبعت في تلك المطابع في عهدها الأول ، يرجح أنه اليوم مبهر

كتاب مشهور هو « النور السافر ، عن أخبار القرن العاشر » وهو من تأليف أحد أفراد أسرة الميروس ، ويتناول أخبار الصوفيين في جنوب الجزيرة العربية وكجرات .

وللحضارة جاليات تقطن منذ عهد بعيد في جزائر الهند الشرقية الهولندية ، ومستعمرات الملايو البريطانية ، وإن كان من المرجح أن نشأة تلك الجاليات لا ترجع في تاريخها إلى مثل ما ترجع اليه جاليات الحضارة في الهند . وللحضارة مطبوعات نشرت في بنافيا ، عاصمة الهند الشرقية الهولندية منذ سنة ١٨٧٥ وتتداول هذه المطبوعات في معظمها العلوم الدينية ، والفقه ، وعلم التوحيد ، وبعضها طبع حجر وبعضها طبع حروف ؛ وبعد ذلك التاريخ بنشرة أعوام طبعت خريطة هامة لشبه الجزيرة العربية ، وكذلك الأطلس العربى ، للسيد عثمان ، على طبعة الحجر .

ومعلوماتنا عن المجهود الأدبية للحضارة خارج وطنهم ، معلومات متناثرة في مجلها ، وبما أنهم أقليات في تلك البلاد التى اتخذوها وطناً لهم - مهما تكن تلك الأقليات مهمة - فقد جر النسيان ذيله على جهودهم الأولى . وليس فيما أعلم في مكلا نفسها مطبعة ، وإلى أن تنشأ هناك آلة للطباعة لن يكون مفر من أن ينتشر الأدب عن طريق المخطوطات التى تنسخها الأيدى أو عن طريق المطبوعات التى تستورد من البلاد العربية الأخرى . وهذا أدعى إلى الأسف ، إذ أن للبلاد تاريخاً ثقافياً عريقاً تمكن المحافظة عليه وتغذيته بما يعيد اليه الحياة مرة أخرى ، بإدخال فن الطباعة .

### المصاحف والمطابع في الجنوب الغربى للجزيرة العرب

أصبحت الجرائد اليوم مصدراً من المصادر التى يعتمد عليها التاريخ ، وإن كان من غير الممكن أن نقول عنها إنها في الغالب دقيقة ، أو زهية عن الحباة ، أو إنها دائماً حسنة الأسلوب ، بل لا نستطيع أن ندعى لها أنها تضع أمامنا صورة صادقة عما هو حادث في البلاد فعلاً . والحق أن المؤرخ اليقظ لا يترقب أن يجد في الجرائد تلك الصفات ، وهو إذ يرجع إليها إنما يرجع إليها مع شعوره بتشجيعها ، ليوضح طريقة عرضها للحوادث في ضوء ميولها

والأحكام القضائية ، والتصانيد المنظومة في مدح الإمام وأمرائه البيت المالك ، كما تحتوي على مقالات أدبية ودينية . وبفضل هذه الجريدة يمكن تتبع الموقف السياسي الداخلي للبلاد ، إلى درجة ما ، كما يمكن الوقوف على الجهود الحميدة التي تبذلها الحكومة المركزية في النهضة بالتعليم ، وتربية روح وطنية عامة - لا روح قبلية محلية - في جميع أنحاء البلاد . وعلى أنه من غير الممكن أن نقدر مبلغ ما لهذه الجريدة من الانتشار في داخل بلاد اليمن ، يمكننا أن نسلم بأنها تصل إلى جميع دور الحكومة في كل قضاء ، وبأنها تتداول بأيدي قراء يزدون في عددهم زيادة كبرى على ما كان للجريدة التي كانت تصدر في العهد التركي ، وتؤدي بذلك خدمة أهم من تلك التي كانت تؤديها تلك الجريدة . ومن المميزات الشائعة في جريدة « الإيمان » ما تنشره لراسليها في سورية وغيرها من البلاد العربية الأخرى .

أما أهل عدن فانهم يستوردون منذ عهد طويل الصحف المصرية التي يكاد يكون الحصول عليها في عدن في مثل سهولة الحصول عليها في القاهرة ، ولا يقتصر قراؤها هنا على العرب فقط ، بل يقرأها كذلك المتعلمون من الصوماليين . وتنتشر الجرائد كذلك في الحج عاصمة السلطنة البديلة ، ولكنها قليلة الانتشار في الجهات الأخرى من الحمية . ولدينا من المراجع المسطورة ما يدل على أنه في سنة ١٨٧٠ كان في عدن مطبعتان : إحداهما في السجن ، ومن المرجح أنها لم تطبع بجانب المطبوعات الحكومية إلا القليل ، والأخرى خارج السجن ، وليس لدينا ما يدل على أنها كانت تطبع كتباً عربية أو على مقدار ما طبعته منها إن كانت قد طبعت منها شيئاً . وشاهدت سنة ١٩١٤ قيام مطبعة ثالثة ، فأصبح هناك ثلاث مطابع تقوم على خدمة عدد من السكان يتراوح بين أربعين ألفاً وخمسين ألفاً ؛ واليوم أستطيع أن أسمي ثلاث مطابع تطبع بالعربية ، منها مطبعة « فتاة الجزيرة » ، ومطبعة « الهلال » في بازار بهرة ، وربما كان هناك مطابع أخرى ولست أدري أكان بين مطبوعات المطابع الأولى ما يزيد على حجم الرسائل أو الاعلانات أم لا ، ولكن من غير المحتمل أن تكون تلك المطبوعات قد اشتملت على كتب . ومنذ نشوب الحرب الحاضرة تولى تحرير جريدة « فتاة الجزيرة » صحفي عدني

بين المكتبات الخاصة والعامة في تركيا ، والهند ، وصنعاء ، وعدن ، وبريطانيا العظمى ، ولكن القارئ المادى لا يعرف شيئاً عن وجودها . على أن لدينا شيئاً من المعلومات عن تأسيس الجريدة اليمنية « صنعاء » التي كانت تطبع بالعربية والتركية . ففي سنة ١٨١٧ قررت الحكومة التركية العثمانية أن يكون في عاصمة كل ولاية من ولايات الدولة العثمانية مطبعة ، وأن يقوم كبار الموظفين في الولاية بنشر تقويم أو كتاب سنوى « سالنامه » يشتمل على أهم الأخبار في الولاية ، وأن تنشر كذلك جريدة في كل عاصمة . وبناء على هذا القرار أقيمت مطبعة في القصر الحالى للإمام المعروف باسم « مقام الإمام » وطبعت فيها جريدة « صنعاء » . ونسخ هذه الجريدة نادرة الوجود جداً في الوقت الحاضر ، ومن المرجح أن هذه الجريدة لم تكن منتشرة ، حتى في ذلك العهد ، إلا في المدن الكبرى ، إذ أن سلطة الأتراك خارج تلك المدن كانت واهية جداً . ويظهر أن عدداً من الرسائل طبع كذلك في تلك المطبعة ، ومن المرجح أن معظمه كان متصلاً بالشئون الحربية والإدارية ، ولكن واحدة من هذه الرسائل قد وقعت في يدي وهي تبحث في الفرائض الدينية . والكتاب الأتراك عن اليمن هم الذين يمكنهم أن يكشفوا عن نشأة هذه المطبعة ، وعلى الخصوص حامد وهي الذي نشر كتابه السنوى عن اليمن « سالنامه سى » في سنة ١٢٨٩ هـ ، وكذلك غيره من المؤلفين الذين كانوا على الأرجح موظفين في الحكومة وكان لهم اهتمام بالبلاد دعاهم إلى كتابة تاريخها . ولقد كان الأتراك طبعا حكاما لجزء من اليمن في حقبة قصيرة في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وما يذكر على سبيل التندر أنه مازال باقياً حتى اليوم في القسطنطينية سور للفتح التركي لليمن من صنع فناني أتراك من أهل ذلك العهد .

وفي أثناء العهد المضطرب الذي تلا الحرب العظمى الأولى لم يكن في اليمن على ما يظهر نشاط أدبي كبير ، غير أنه في سنة ١٣٤٥ هـ و ( ١٩٢٦ م ) ظهرت الأعداد الأولى للجريدة اليمنية الجديدة في صنعاء ، مطبوعة في المطبعة التركية القديمة ومسماة باسم « الإيمان » . وتشتمل هذه الجريدة الرسمية على نصوص الماهدات المفعودة مع الدول الأجنبية . وعلى الراسم ،

« وأما لغة الإنشاء فصحيحة ، لكن أسلوبها أسلوب المصور الوسطى ، وليس فيها تلك السلاسة والروية والدونة التي ترى في أساليب المصريين من أهل مصر ، وسورية ، ولبنان ، والعراق ؛ وكل ما يرى إليه كتبة الميانيين السجع المل . »  
ولكنه محتاط فيقترح الحل الآتي : « على أن لا يريد بذلك ذم كلام أبناء اللين ، بل نود أن يطلعو التعانيف الحديثة التي تصدر كل يوم في الديار العربية اللسان . »

وفيما يتعلق بلغة التخاطب والمحادثة ، يستخدم أهل المدن لهجة شائعة يفهمها التريب بسهولة ، أما في القرى فلتناس لهجات كثيراً ما يصب فهمها على المسافرين الوافدين من جهات أخرى . وبين يدي الآن وثيقة قانون قبلي أو شرع قبيلة كما تسمى في جنوبي جزيرة العرب ، وهي وثيقة لا يستطيع فهمها مغربي أو سوري ، بل لا يستطيع فهمها حضرمي مثلاً . ومع ذلك فهي مكتوبة باللهجة التي تتكلمها هذه القبيلة دائماً ، بل يتكلمها سلطانها . وفي بعض المناطق ما زالت لغة التخاطب قوية الشبه بلغة بني حمر ، وإن بدعش علماء النحو أن يعلموا أن « ام » ما زالت تستعمل أداة للتعريف بصفة عامة جداً ، كما أخبرنا بذلك منذ قديم كل من الزغشري وسيبويه . إن في الجنوب الغربي لجزيرة العرب مناطق كثيرة لم تكده الحروف المطبوعة تخترق أصقاعها ، وهذه المناطق تكاد لا تريد على أن تفهم لغة الجرائد المصرية . على أن أرتجال الشعر في تلك الجهات ما زال عنصراً من عناصر الحياة الاجتماعية للناس . وليس ثمة شك في أنه في خلال نصف قرن يأتي ستطور منطقة الجنوب الغربي بانتشار التربية وتعلم القراءة والكتابة ، وما سيصحبها من نشر المعلومات المصرية في الفنون الهندسية والأساليب الأدبية ، وسيكون من الشائق جداً أن يلاحظ الباحث تطور هؤلاء القوم تحت تأثير هذه العوامل الحديثة . لقد كان للبلاد ماض مجيد في تاريخ المدنية ، وجدير بها أن يكون لها مستقبل مجيد ، وهي بذلك أجدر بسبب ما تحتويه من الثروة الطبيعية التي ساعدت في الحجاز على تقدم الشعب العربي .

الركنور ر . ب . سارميت

اسمه محمد نقان ، ونشر هذه الجريدة الأخبار المحلية ، وقصائد شعرية ، ومواد في التربية والتعليم ، ومقالات عامة ، والأوامر الحكومية . وإذا قارنا هذه الجريدة بجريدة « الايمان » التي تنجح إلى الأسلوب القديم ، ألفيناها ذات أسلوب حديث في عرض موضوعاتها ، وتستخدم لغة الصحافة الحديثة العربية . وهي منتشرة في عدن ولحج وإن كنت رأيت بعض نسخ منها في الأجزاء الأخرى من المحمية ، وربما وجدت أيضاً في حضرموت حيث مستوى التعليم أعلى نوعاً ما .

وقد سبق أن ذكرنا جريدة « الاعتصام » الحضرية ، ولكنه إذ لا مفر من طبع جميع الكتب الحضرية في الخارج ، كذلك الجرائد المطبوعة تأتي من الخارج . فمن ذلك أن الجرائد تستورد من جزائر الهند الشرقية الهولندية ، ومن المرجح أن يكون من بينها جريدة « حضرموت » التي تطبع في سورابايا ، في الهند الشرقية الهولندية ، منذ نحو سنة ١٩٣٣ . وكانت تطبع في سنغافورة جرائد عربية قبل الحرب الماضية ، وعلى أنني لم أر واحدة منها ، أرجح كل الترجيح أنها كانت من تحرير الحضارمة ، وأنه ظلت الجرائد العربية تظهر هناك حتى عهد قريب . ومن الصحف المتداولة في المدن الساحلية للمحيط الهندي مجلة « العرب » التي تصف نفسها بأنها « جريدة إسلامية ، أخبارية ، أسبوعية ، تصدر من الهند » ؛ وقد بدأت هذه الصحيفة في الظهور في سنة ١٩٤٠ - ١٩٤١ ، وهي تحتوي على أخبار ومعلومات عامة عن عدن ، واليمن ، وحضرموت . وهي تطبع في بمباي ، وتدعى أنها « حلقة الاتصال بين الهند والعالم العربي » ويرد إلى حضرموت مجموعة متنوعة من الصحف بالإضافة إلى الصحف المصرية والعراقية ، غير أن توزيعها يقتصر على المدن ولا سيما المدن التي هي أقرب إلى الساحل .

### اللغة العربية في جنوبي الجزيرة العربية

ونختتم بحثنا هذا بكلمة قصيرة عن الأساليب العربية التي تستعمل في جنوبي الجزيرة العربية . والأب أستاس ماري يقول عن جدارة ، معبراً عن وجهة نظر الأمم الآخذة من التقدم بنصيب أوفى ، فيما يتعلق بالأسلوب العربي الذي يستعمله اللين :